كتاب المراثي

ـ النشيد الاول ـ

ـ ١ ـ

آسرجت دمي ،
ومددت يدي أتوكأ فوق الرمل عليها ،
وأهش على الليل بها .
حين نظرت الى الظلمة ، كان السجن طريقا
يتمدد في جسدي ، يرشح من
عيني ، ويدعو الفرسان لقطع يدي :
هي ذي صهوات الخيل تطاردني ،
وتحاصر وجهي ،
فنزعت قميصي أقرأ فيه بقية ما
تركته الشمس ... تمزق بين يديّ قميصي
وتبرّأ منـي :
ـ « ان دمي يشهد أنت رفيقي »
ـ « كذب الدم ... محكمة الارض اعتزلت شرعتها ،
وارتحلت لم تحفظ غصن بريق »
ماذا أطلب ؟ هذا رمح يفضح وجهي ،
ويعلق في عينيّ طيوره ،
ذاك دم مد الى أذني صريره ،
تلك صدور تتفصد أقواسا ،
وتهمّ تبارزني ـ
أحكمت الصحراء عليّ مجازرها .
يا نهر الحكمة والخوف متى بمياهك تنقذني ؟
الظلمة تستنفر هبوتها ،
وأنا ضاع قميصي
وبقيت أحدّث سجني عن وطني !

* * *

في الظلمة أسمع أصوات الفرسان تتاجر بي ،
وتفاوض افعى
في وقت يعلن فيه النهر بأن الحراس انتهكوا
كل مناسكه :
كتبوا فوق الماء وبيعه بقيي
(ايكون الشاهد فيه ودما وصدورا ؟)
في الظلمه لم يبق أسم الا ووشى باسمي :
كلّ قدّم لائحه من تهم لمليك الصحراء ، فارسل في أثري
خير فوارسه ... امتلأت بهم القصبات !
فلتتذكر يا هذا الفارس ـ حين تسافر في النوم ، تسل
الاحلام عليك سيوفا ـ
ان قد سلمني النهر وصيته ،
ولتتذكر يا هذا الفارس ـ حين تجر خطاك مع الفجر
الى الرقبه ـ
ان الدم ينفر من عينيك ،
يسأل عن اخوته
تم يمد يديه الى جيبك يخرج منها خرزات
هي أعين من ماتوا بيديك

ـ ٢ ـ

في الظلمة طوّقني النهر بزنار
واشار بأن أتبعه ، اصطدمت أيدينا
بممالك يبنيها فرسان وخيول .
قلت : « وقعنا »
قال النهر : « اترك رأسك تحت الشجره
في ظل لن تمحوه الشمس ولن يطفى الليل عليه ،
واتبعني حيث الجسر يفجر برقا بين خطاك »
قلت : « تساقطت الاوراق »
قال : « الماء يفك سجون الطير وينهض فينا »
(لوّحت الظلمة ان قد خلفتم جسد الماء سجينا)
قلت : « شباك الفرسان تجمع ما يتناثر من برق خطاي »
قال : « اخلع قدميك ، ارمهما في أقرب مخبأ .
اسرع !
لم يبق البحر من الشمس سوى كسرة ضوء
بعد قليل يأكلها الافق الجائع »
قلت : « الم نبلغ سفح الجودي ؟ »
قال النهر : « أنا الجودي »

هبط الوحي على أكتافي
وتوفي في العام الثالث من بعثته ،
خلّف أحفادا وبيوتا
هربوا من شرفات الليل الى ليل لا اسم له »
قلت : « يداي ارتختا »
قال النهر : « تدحرج ، فالوقت قصير ،
ورماح الفرسان ترش سواحلنا
بعيـون احبّتنا » .
(لوّحت الظلمة ان لا مخبأ في السفح لكم
حرث الفرسان سمائي
وسقوها أجسادا دون دماء !)

* * *

سقط الفارس بين النهر وبيني ،
وبنى برجا وربيئه
بين خطاي ورأسي .

* * *

يا من طرقت عيناك الباب ... غريب أنت ؟ اهرب !
ابواق الفرسان تشب امامك في الصبح ، وتركض خلفك
في الظلمه ،
انظر قدميّ ورأسي ويديّ
كانت تحمل كل طريق
أمست تهرب منها كل طريق !
صاح النهر : « توقف يا من طرقت
عيناك الباب . غريب أنت ؟ فلا تهرب :
مختار من يفهمني
مرموق من يتبعني » .
وتدحرجت عن النهر بعيدا
يغزوني عطش
وتراودني أخيلة من ماء
وتسافر في عينيّ عباءة رمل وقوافل دون حداء ،
وعلى الشارع في الزرقاء
كان لسان ابن اياد يتدحرج مقطوعا :
أين الماء
أين الماء !

- ٣ -

الجوع يعلق في خاصرتي بوقا :
ـ « اجعلني لؤلؤة في تاجك ، جمرا بيمينك ، حقـلا
تحت خطاك ، اجعلني بلحا ، جرة زيت ،
طفل امراة عذراء ، اجعلني يا جوع نديما للبرق، سميرا
للحجر المشدود على بطني ... اجعلني ... »
سمع الجوع وعلق في خاصرتي بوقا .

* * *

النهر توارى خلف الهضبه ،
صرّح للوارد ان ما عاد الماء يلبي
صهوات الشطآن ويحمي
قصلات القمح الملتهبه ،
تخذ الرمل رداء ، وبكى بين أكفّ العتبه :
ـ « ما خلفت من الموج سوى واحدة . انظرها
واقفة بين السفح واقدام الفرسان
تنصح من يهرب ان يلبس أقنعة الرهبان ! »
حين نفخت البوق انهمرت من فمه قافلة جوعى ،
فتحدثنا عن مدن العطش المرمية في كتب العرب ـ
وافانا الليل ونحن نسوق الاحلام على عربات الكتب
أواه !
لكم ابتعد النهر ، أضاع النخلة بين ملائكة الله وأسنان
الشيطان .

* * *

هبط الغيم الى زمزم يسأل عن مطر :
(نزح القوم ، خلفوا في حزام
المدن العطشى خيمة ورتاجا
فدع البئر ، قد بنى الطير عشا
فوقه ثم ألبس العش تاجا
خوف ان تشرع الصقور جناحيها
وتبني لصيدها ابراجا)
ـ « أين المطر ؟ »
ـ « مخبوء في قرب الفرسان ، فهلاّ
صوّبت رماحك يا غيم الى دمنا .
ومخضت بهيدبك الجوع لنا ؟! »
ـ « حرث الفرسان سمائي ،
سرقوا كل وريد في جسدي ،
فعصتني صارية الفجر ، التبست
في شفتيّ طقوس الريح ... أأنتم مثلي
مشمولون بداء الارض ؟ هلموا
نمتحن الارض ، نلمّ مناسكها !»
صافحنا الغيم وصار بأوجهنا ملكا للجوع ،
فذهبنا نبحث عن مطر ...

بغداد — **خالد علي مصطفى**